

مكتبة مشكاة الإسلامية

زاد المسير في علم التفسير

ابن الجوزي

سورة فاطر

وتسمى سورة الملائكة، وهي مكية باجماعهم.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
{ لِحَمْدِ اللّٰهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ لِمَلٰئِكَتِهٖ رُسُلًا ۗ اُولٰٓئِكَ اُجْنِحَتْ
مَنْنٰی وَوَيْلَتْ وَرُبَعٌ يَزِيْدٌ فِیْ خَلْقِ مَا يَشَآءُ ۗ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰی كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ * مَا
يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكٍ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهٗ مِنْ
بَعْدِهٖ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ }

قوله تعالى: { لِحَمْدِ اللّٰهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ } أي: خالقهما مبتدئا
على غير مثال. قال ابن عباس: ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض،
حتى اختصم أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها.
قوله تعالى: { جَاعِلِ لِمَلٰئِكَتِهٖ } وروى الحلبي والقزاز عن عبد الوارث:
{ جَاعِلِ } بالرفع والتنوين { لِمَلٰئِكَتِهٖ } بالنصب { رُسُلًا } يرسلهم إلى
الأنبياء وإلى ما يشاء من الأمور { أُولٰٓئِكَ اُجْنِحَتْ } أي: أصحاب أجنحة،
{ مَنْنٰی وَوَيْلَتْ وَرُبَعٌ } فبعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له
أربعة. و{ يَزِيْدٌ فِیْ خَلْقِ مَا يَشَآءُ } فيه خمسة أقوال.
أحدها: أنه زاد في خلق الملائكة الأجنحة، رواه أبو صالح عن ابن عباس.
والثاني: يزيد في الأجنحة ما يشاء، رواه عباد بن منصور عن الحسن، وبه
قال مقاتل.

والثالث: أنه الخلق الحسن، رواه عوف عن الحسن.

والرابع: أنه حسن الصوت، قاله الزهري وابن جريج.

والخامس: الملاحاة في العينين، قاله قتادة.

قوله تعالى: { مَا يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ } أي: من خير ورزق، وقيل:
أراد بها المطر { فَلَا مُمْسِكٍ لَهَا } وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبيدة: { فَلَا
مُمْسِكٍ لَهَا } وفي الآية تنبيه على أنه لا إله إلا هو، إذ لا يستطيع أحد
إمساك ما فتح وفتح ما أمسك.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ۗ ذُكِّرُوا نِعْمَةً ۗ اللّٰهُ عَلَيكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللّٰهِ يَزُرُّكُمْ مِّنْ
السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآنِي تُؤْفِكُوْنَ * وَإِن يَكْفُرُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَآلِي اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ ۗ إِن وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ فَلَا
تَغْرَبَنَّكُمْ لِحَيٰوَةِ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبَنَّكُمْ بِاللّٰهِ لِعُرُوْرُ * إِن الشَّيْطٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ
وَ لَتُخَذَوُهٗ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُوْنُوْا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيْرِ * لَّذِيْنَ كَفَرُوْا
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَ لَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيْرٌ }

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ۗ ذُكِّرُوا نِعْمَةً ۗ اللّٰهُ عَلَيكُمْ } قال المفسرون:
الخطاب لأهل مكة، واذكروا بمعنى: احفظوا، ونعمة الله عليهم: إسكانهم
الحرم ومنع الغارات عنهم.

{ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللّٰهِ } وقرأ حمزة والكسائي: { غَيْرِ اللّٰهِ } بخفض
الراء. قال أبو علي: جعله صفة على اللفظ، وذلك حسن لإتباع الجر، وهذا
استفهام تقرير وتوبيخ والمعنى: لا خالق سواه يرزقكم من السماء المطر

و من الأرض النبات. وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأنعام: 95] [آل عمران: 184] [البقرة: 210] [لقمان: 33] إلى قوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ} أي: إنه يريد هلاككم {وَ يَتَّخِذُوكَ عَدُوًّا} أي: أنزلوه من أنفسكم منزلة الأعداء، وتجنبوا طاعته {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ} أي: شيعته إلى الكفر {لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}.

{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَاللَّهُ لِيذُرَّ السَّيِّئِينَ فَتُخْرِجَ السَّيِّئِينَ سَخَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَمْنُونٍ فَاخْتَبَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ اللَّهُ لَشُورٌ}

قوله تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها نزلت في أبي جهل ومشركي مكة، قاله ابن عباس. والثاني: في أصحاب الأهواء والملل التي خالفت الهدى، قاله سعيد بن جبير.

والثالث: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله أبو قلابة.

فان قيل: أين جواب {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ}؟

فالجواب: من وجهين ذكرهما الزجاج.

أحدهما: أن الجواب محذوف والمعنى: أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله؟ ويدل على هذا قوله: {فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}.

والثاني: أن المعنى أفمن زين له سوء عمله فأضله الله، ذهبت نفسك عليهم حسرات، ويدل على هذا قوله: {فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ} وقرأ أبو جعفر {فَلَا تَذْهَبُ} بضم التاء وكسر الهاء {نَفْسُكَ} بنصب السين.

وقال ابن عباس: لا تغتم ولا تهلك نفسك حسرة على تركهم الإيمان.

قوله تعالى: {فَتُخْرِجُ السَّيِّئِينَ سَخَابًا} أي: تزرعه من مكانه، وقال أبو عبيدة:

تجمعه وتحياه به، و{سُقْنَاهُ} بمعنى: نسوقه، والعرب قد تضع فعلنا في موضع نفع، وأنشدوا:

إن يسمعوا ربة طاروا بها فرحا مني وما سمعوا من صالح دفنوا

المعنى: يطيروا ويدفنوا.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ اللَّهُ لَشُورٌ} وهو الحياة وفي معنى الكلام قولان.

أحدهما: كما أحيا الله الأرض بعد موتها، يحيي الموتى يوم البعث، روى أبو رزين العقيلي، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «هل مررت بوادي أهلك محلا؟ ثم مررت به يهتر خضرا قلت: نعم، قال: فذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه».

والثاني: كما أحيا الله الأرض المينة بالماء، كذلك يحيي الله الموتى بالماء. قال ابن مسعود: يرسل الله تعالى ماء من تحت العرش كمني الرجال،

قال: فتنبت لحمانهم وجسمانهم من ذلك الماء، كما تنبت الأرض من

الثرى، ثم قرأ هذه الآية. وقد ذكرنا في [الأعراف: 57] نحو هذا الشرح.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ لِعِزَّةِ فَلِيهِ لِعِزَّةِ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ لِكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ لِعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ وَ لِذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ }

قوله تعالى: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ لِعِزَّةِ } فيه ثلاثة أقوال.
أحدها: من كان يريد العزة بعبادة الأوثان { فَلِيهِ لِعِزَّةِ جَمِيعاً } قاله مجاهد.

والثاني: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله، قاله قتادة. وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: «إن ربكم يقول كل يوم: انا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز».

والثالث: من كان يريد علم العزة لمن هي فانها لله جميعاً، قاله الفراء.
قوله تعالى: { إِلَيْهِ يَصْعَدُ لِكَلِمِ الطَّيِّبِ } وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، والنخعي، والجديري، والشيزري عن الكسائي: { يَصْعَدُ الطَّيِّبِ } وهو توحيده وذكره { وَ لِعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ } قال علي بن المديني: الكلم الطيب: لا إله إلا الله، والعمل الصالح: أداء الفرائض واجتناب المحارم.

وفي هاء الكناية في قوله يرفعه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلى الكلم الطيب، فالمعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك، وكان الحسن يقول: يعرض القول على الفعل، فان وافق القول الفعل قبل وإن خالف رد.

والثاني: أنها ترجع إلى العمل الصالح، فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، فهو عكس القول الأول، وبه قال أبو صالح وشهر بن حوشب. فاذا قلنا إن الكلم الطيب هو التوحيد، كانت فائدة هذا القول، أنه لا يقبل عمل صالح إلا من موحد.

والثالث: أنها ترجع إلى الله عز وجل، فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الله إليه أي يقبله، قاله قتادة.

قوله تعالى: { وَ لِذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ } قال أبو عبيدة: يَمْكُرُونَ بمعنى: يكتسبون ويجترحون، ثم في المشار إليهم أربعة أقوال.

أحدها: أنهم الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة، قاله أبو العالية.

والثاني: أنهم أصحاب الرياء، قاله مجاهد وشهر بن حوشب.

والثالث: أنهم الذين يعملون السيئات، قاله قتادة وابن السائب.

والرابع: أنهم قائلو الشرك، قاله مقاتل.

وفي معنى { يُبَوِّرُ } قولان.

أحدهما: يبطل قاله ابن قتيبة.

والثاني: يفسد قاله الزجاج.

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * وَمَا يَسْتَوِي لَبَّخْرَانِ هَذَا عَذَابٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَىٰ لِفْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُولِجُ لَيْلًا فِي

الْتَّهَارِ وَيُولِجُ الَّتَّهَارَ فِي لَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَ لَقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًى دَلِكُمْ اَللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ لِمُلْكٌ وَ لِيَذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ
قِطْمِيرٍ * اِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا سَبَّحَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ
الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِيَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ {

قوله تعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ } يعني آدم { ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } يعني
نسله { ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا } أي أصنافاً ذكورا وإناثا. قال قتادة: زوج بعضهم
بعض.

قوله تعالى: { وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ } أي: ما يطول عمر أحد { وَلَا يُنْقَصُ }
وقرأ الحسن ويعقوب { يُنْقَصُ } بفتح الياء وضم القاف { مِنْ عُمُرِهِ } في
هذه الهاء قولان.

أحدهما: أنها كناية عن آخر، فالمعنى: ولا ينقص من عمر آخر، وهذا
المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في آخرين. قال
الفراء: وإنما كني عنه لأنه الأول، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول،
كأنه قال: ولا ينقص من عمر معمر، ومثله في الكلام: عندي درهم
ونصفه، والمعنى: ونصف آخر.

والثاني: أنها ترجع إلى المعمر المذكور، فالمعنى ما يذهب من عمر هذا
المعمر يوم أو ليلة إلا وذلك مكتوب. قال سعيد بن جبیر: مكتوب في أول
الكتاب عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب أسفل من ذلك، ذهب يوم ذهب يومان
ذهبت ثلاثة إلى أن ينقطع عمره، وهذا المعنى في رواية ابن جبیر عن ابن
عباس، وبه قال عكرمة وأبو مالك في آخرين.

فأما الكتاب فهو اللوح المحفوظ.
وفي قوله: { اِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } قولان.
أحدهما: أنه يرجع إلى كتابة الأجل.
والثاني: إلى زيادة العمر ونقصانه.

قوله تعالى: { وَمَا يَسْتَوِي لِبَحْرَانِ } يعني: العذب والملح، وهذه الآية وما
بعدها قد سبق بيانه [الفرقان: 53، النحل: 14، آل عمران: 27، الرعد: 3]
إلى قوله: { مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ } قال ابن عباس: هو القشر الذي
يكون على ظهر النواة.

قوله تعالى: { اِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ } لأنهم جماد، { وَلَوْ سَمِعُوا
{ بَأَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ لَهُمْ أَصْمَاعًا، { مَا سَبَّحَابُوا لَكُمْ } أي: لم يكن عندهم
إجابة { وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِيَشْرِكِكُمْ } أي يتبرؤون من عبادتكم { وَلَا
يُنَبِّئُكَ } يا محمد { مِثْلُ خَبِيرٍ } أي: عالم بالأشياء يعني نفسه عز وجل،
والمعنى أنه لا أخبر منه عز وجل بما أخبر أنه سيكون.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ لِفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ لِعَيْنِي لِحَمِيدٍ * اِنْ يَشَأْ
يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا
نُنذِرُ لِيَذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ لِغَيْبٍ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتْرَكَ
لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ لِمَصِيرٌ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ
وَلَا النُّورُ * وَلَا الظُّلُّ وَلَا لِحُرُورٌ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ اِنْ اللَّهُ
يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * اِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * اِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِنْ يَكْذِبُونَ

**فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبْرُ وَبِالْكِتَابِ
لُمِينٍ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {**

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ لِعُقْرَاءِ إِلَى اللَّهِ } أي: المحتاجون إليه { وَاللَّهُ هُوَ
لَعِينٌ } عن عبادتكم { لَحْمِيدٌ } عند خلقه باحسانه إليهم. وما بعد هذا قد
تقدم بيانه [إبراهيم: 19، الأنعام: 164] إلى قوله: { وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ
نَفْسٍ مَثْقَلَةٍ بِالذَّنُوبِ { إِلَىٰ جَمَلِهَا } الذي حملت من الخطايا { لَا يُحْمَلُ مِنْهُ
شَيْءٌ } ولو كان الذي تدعوه { ذَا قُرْبَىٰ } ذا قرابة { إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } أي يخشونه ولم يروه، والمعنى: إنما تنفع بانذارك
أهل الخشية، فكانك تنذرهم دون غيرهم، لمكان اختصاصهم بالانتفاع
{ وَمِنْ تَرَكَيْ } أي تظهر من الشرك والفواحش، وفعل الخير { فَإِنَّمَا
يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ } أي: فصلاحه لنفسه { وَإِلَى اللَّهِ لَمَصِيرُ } فيجزي
بالأعمال.

{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ } يعني المؤمن والمشرك { وَلَا الظُّلُمَاتُ }
يعني: الشرك والضلالت { وَلَا النُّورُ } الهدى والإيمان { وَلَا الظُّلُّ وَلَا
الْحُرُورُ } فيه قولان.

أحدهما: ظل الليل وسموم النهار، قاله عطاء.
والثاني: الظل: الجنة، والحرور: النار قاله مجاهد. قال الفراء: الحرور
بمنزلة السموم، وهي الرياح الحارة. والحرور تكون بالنهار وبالليل،
والسموم لا تكون إلا بالنهار. وقال أبو عبيدة: الحرور تكون بالنهار مع
الشمس، وكان رؤية يقول: الحرور بالليل، والسموم بالنهار.

قوله تعالى: { وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ } فيهم قولان.

أحدهما: أن الأحياء المؤمنون، والأموات الكفار.

والثاني: أن الأحياء العقلاء، والأموات الجهال، وفي «لا» المذكورة في
هذه الآية قولان.

أحدهما: أنها زائدة مؤكدة.

والثاني: أنها نافية لاستواء أحد المذكورين مع الآخر.

قال قتادة: هذه أمثال ضربها الله تعالى للمؤمن والكافر، يقول: كما لا

تستوي هذه الأشياء، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن.

{ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ } أي يفهم من يريد إفهامه { وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ

فِي الْقُبُورِ } وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي والحسن والجحدري { بِمُسْمِعٍ

مَنْ } على الإضافة يعني: الكفار، شبههم بالموتى { إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ }

قال بعض المفسرين: ينسخ معناها بآية السيف.

قوله تعالى: { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } أي ما من أمة إلا قد جاءها

رسول. وما بعد هذا قد سبق بيانه [آل عمران: 184، الحج: 44] إلى قوله:

{ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } أثبت فيها الياء في الحاليين يعقوب وافقه في الوصل

ورش.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبٌ سُوْدٌ * وَمِنَ النَّاسِ

وَالدَّوَابِّ وَآلَانَعَمٍ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ

اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ }

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ

قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا لِكِتَابٍ} في ثم وجهان.

أحدهما: أنها بمعنى الواو.

والثاني: أنها للترتيب والمعنى: أنزلنا الكتب المتقدمة، ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا وفيهم قولان.

أحدهما: أنهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم الأنبياء وأتباعهم قاله الحسن. وفي الكتاب قولان.

أحدهما: أنه اسم جنس، والمراد به الكتب التي أنزلها الله عز وجل، وهذا

يخرج على القولين، فإن قلنا: الذين اصطفوا أمة محمد، فقد قال ابن

عباس: إن الله أورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم كل كتاب أنزله.

وقال ابن جرير الطبري ومعنى ذلك: أورثهم الإيمان بالكتب كلها وجميع

الكتب تأمر باتباع القرآن، فهم مؤمنون بها عاملون بمقتضاها، واستدل

على صحة هذا القول، بأن الله تعالى قال في الآية التي قبل هذه: {وَلِيذِي

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ} وأتبعه بقوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا لِكِتَابٍ}

فعلمنا أنهم أمة محمد، إذ كان معنى الميراث انتقال شيء من قوم إلى

قوم، ولم تكن أمة على عهد نبينا انتقل إليهم كتاب من قوم كانوا قبلهم

غير أمته، فإن قلنا: هم الأنبياء وأتباعهم، كان المعنى: أورثنا كل كتاب

أنزل على نبي ذلك النبي وأتباعه.

والقول الثاني: أن المراد بالكتاب القرآن.

وفي معنى أورثنا قولان.

أحدهما: أعطينا لأن الميراث عطاء، قاله مجاهد.

والثاني: أخرجنا ومنه الميراث لأنه تأخر عن الميت، فالمعنى: أخرجنا القرآن

عن الأمم السالفة، وأعطينا هذه الأمة إكراما لها، ذكره بعض أهل

المعاني.

قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَلِمْ لِنَفْسِهِ} فيه أربعة أقوال.

أحدها: أنه صاحب الصغائر، روى عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه قال: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له».

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه

الآية قال:

«كلهم في الجنة».

والثاني: أنه الذي مات على كبيرة ولم يتب منها، رواه عطاء عن ابن

عباس.

والثالث: أنه الكافر، رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس، وقد رواه ابن عمر

مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فعلى هذا يكون الاصطفاء لجملة

من أنزل عليه الكتاب، كما قال: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف: 44]

أي: لشرف لكم وكم من مكرم لم يقبل الكرامة.

والرابع: أنه المنافق، حكى عن الحسن وقد روي عن الحسن أنه قال:

الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته، والمقتصد الذي قد استوت

حسناته وسيئاته، والسابق من رجحت حسناته. وروي عن عثمان بن عفان

أنه تلا هذه الآية فقال: سابقنا أهل جهادنا، ومقتصدنا أهل حضرنا، وظالمنا أهل بدونا.

قوله تعالى: { وَمِنْهُمْ سَابِقٌ } وقرأ أبو المتوكل والجحدري وابن السميع { سابق } مثل فعال { سَابِقٌ } لُخِيْرَتِ { أي بالأعمال الصالحة إلى الجنة أو إلى الرحمة { بِإِذْنِ اللَّهِ } أي بارادته وأمره { ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } يعني إيراثهم الكتاب.

ثم أخبر بثوابهم فجمعهم في دخول الجنة فقال: { جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا } قرأ أبو عمرو وحده { يَدْخُلُونَهَا } بضم الياء، وفتحها الباقون، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم { وَلَوْلُوا } بالنصب وروى أبو بكر عن عاصم أنه كان يهمز الواو الثانية، ولا يهمز الأولى، وفي رواية أخرى، أنه كان يهمز الأولى ولا يهمز الثانية، والآية مفسرة في سورة [الحج: 23] قال كعب: تحاكت مناكبهم ورب الكعبة ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

{ وَقَالُوا لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَخْلَلْنَا دَارَ لِمُقَامَةٍ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ * وَهُمْ يَصْطَرِجُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مِمَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ مِنَ النَّذِيرِ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْفًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا }

ثم أخبر عما يقولون عند دخولها وهو قوله: { لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ } الحزن والحزن واحد كالبخل والبخل. وفي المراد بهذا الحزن خمسة أقوال.

أحدها: أنه الحزن لطول المقام في المحشر، روى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا، وأما الظالم لنفسه فإنه حزين في ذلك المقام». فهو الحزن والغم وذلك قوله تعالى: { لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ }.

والثاني: أنه الجوع، رواه أبو الدرداء أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يصح، وبه قال شمر بن عطية وفي لفظ عن شمر أنه قال: الحزن هم الخبز، وكذلك روى عن سعيد بن جبير أنه قال: الحزن هم الخبز في الدنيا.

والثالث: أنه حزن النار رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس. والرابع: حزنهم في الدنيا على ذنوب سلفت منهم، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والخامس: حزن الموت، قاله عطية. والآية عامة في هذه الأقوال وغيرها، ومن القبيح تخصيص هذا الحزن بالخبز وما يشبهه، وإنما حزنوا على ذنوبهم وما يوجب الخوف. قوله تعالى:

{ لَيْدِي أَخَلَّنَا } أي أنزلنا { دَارَ لُمُقَامَةٍ } قال الفراء: المقامة هي الإقامة، والمقامة: المجلس بالفتح لا غير، قال الشاعر:
يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب

قوله تعالى: { مِنْ فَضْلِهِ } قال الزجاج: أي بتفضله لا بأعمالنا، والتَّصَبُّ: التعب، واللغوب: الإعياء من التعب، ومعنى { لُغُوبٌ } شيء يلغب أي: لا تتكلف شيئاً نُعْنَى منه.

قوله تعالى: { لَا يُفْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا } أي لا يهلكون فيستريحوا مما هم فيه ومثله { فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَصَى عَلَيْهِ } [القصص: 51] قوله تعالى:
{ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ } وقرأ أبو عمرو { يَجْزِي } بالياء { كُلٌّ } برفع اللام وقرأ الباقر بن جزي بالنون كل بنصب اللام.

قوله تعالى: { وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا } وهو افتعال من الصراح: والمعنى: يستغيثون، فيقولون { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً } أي نوحك ونطيعك { غَيْرَ لِيذَى كُنَّا نَعْمَلُ } من الشرك والمعاصي، فوبخهم الله تعالى بقوله: { أَوْلَمْ نَعْمَرِكُمْ } قال أبو عبيدة: معناه التقرير، وليس باستفهام، والمعنى: أو لم نعمركم عمراً يتذكر فيه من تذكر؟.

وفي مقدار هذا التعمير أربعة أقوال.

أحدها: أنه سبعون سنة قال ابن عمر: هذه الآية تعبير لأبناء السبعين. والثاني: أربعون سنة.

والثالث: ستون سنة رواهما مجاهد عن ابن عباس، وبالأول منهما قال الحسن وابن السائب.

والرابع: ثماني عشرة سنة قاله عطاء ووهب بن منبه وأبو العالية وقتادة. قوله تعالى: { وَجَاءَكُمْ } [التَّذِيرُ] فيه أربعة أقوال.

أحدها: أنه الشيب، قاله ابن عمر وعكرمة وسفيان بن عيينة والمعنى: أو لم نعمركم حتى شبتم.

والثاني: النبي صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة وابن زيد وابن السائب ومقاتل.

والثالث: موت الأهل والأقارب.

والرابع: الحمى ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: { فَذُوقُوا } يعني: العذاب { فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ } أي: من مانع يمنع عنهم. وما بعد هذا قد تقدم بيانه [المائدة: 7] إلى قوله:

{ خَلِّفَ فِي الْأَرْضِ } وهي الأمة التي خلفت من قبلها، ورأت فيمن تقدمها ما ينبغي أن تعتبر به { فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ } أي جزاء كفره.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً * إِنْ لِلَّهِ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }

قوله تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ } المعنى: أخبروني عن الذين عبدتم من دون الله، واتخذتموهم شركاء بزعمكم، بأي شيء أوجبتم لهم الشركة في العبادة؟ أبشياء خلقوه من الارض، أم شاركوا خالق السماوات في خلقها؟

ثم عاد إلى الكفار فقال: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ } يامرهم بما يفعلون { قَهُمْ عَلَى بَيْتَةِ مَنُهِ } قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم على { بَيْتَةٍ } على التوحيد. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم { بَيْتَتِ } جمعا والمراد البيان بأن مع الله شريكا { بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ } يعني المشركين يعد { بَعْضُهُمْ بَعْضًا } أن الأصنام تشفع لهم، وأنه لا حساب عليهم ولا عقاب. وقال مقاتل ما يعد الشيطان الكفار من شفاعة الآلهة إلا باطلا.

قوله تعالى: { إِنْ أَلَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا } أي يمنعها من الزوال والذهاب والوقوع. قال الفراء: { وَلَئِنْ } بمعنى «ولو» و«إن» بمعنى «ما»، فالتقدير: ولو زالتا ما أمسكهما من أحد. وقال الزجاج: لما قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله كادت السماوات يتفطرن والجبال أن تزول والارض أن تنشق، فأمسكها الله عز وجل، وإنما وحد { الْأَرْضِ } مع جمع السماوات، لأن الأرض تدل على الأرضين. { وَلَئِنْ زَالَتَا } تحتمل وجهين. أحدهما: زوالهما يوم القيامة.

والثاني: أن يقال تقديرا: وإن لم تزولا، وهذا مكان يدل على القدرة، غير أنه ذكر الحلم فيه، لأنه لما أمسكهما عند قولهم: { تَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا } [مريم: 88] حلم فلم يعجل لهم العقوبة.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * سَتُكْتَبَارُ فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ لِمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَىٰ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا }

قوله تعالى: { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } يعني: كفار مكة، حلفوا بالله قبل إرسال محمد صلى الله عليه وسلم { لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ } أي: رسول الله { لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ } أي: أصوب دينا { مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ } يعني: اليهود والنصارى الصائبين { فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ } وهو محمد صلى الله عليه وسلم { مَّا زَادَهُمْ } مجيئه { إِلَّا نُفُورًا } أي: تباعدا عن الهدى، { سَتُكْتَبَارُ فِي الْأَرْضِ } أي عتوا على الله وتكبرا عن الإيمان به. قال الاخفش: نصب { سَتُكْتَبَارُ } على البدل من النفور. قال الفراء: المعنى: فعلوا ذلك استكبارا { وَمَكْرَ } فأضيف المكر إلى السيء كقوله: { وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ } [الحاقة: 51] وتصديقه في قراءة عبد الله «ومكرا سيئا» والهمزة في { السيء } مخفوضة وقد جزمها الأعمش وحمزة لكثرة الحركات. قال الزجاج: وهذا عند النحويين الحذاق لحن، إنما يجوز في الشعر اضطرارا، وقال أبو جعفر النحاس: كان الأعمش يقف على «مكر السيء» فيترك الحركة. وهو وقف حسن تام، فغلط الراوي، فروى أنه كان يحذف الإعراب في الوصل فتابع حمزة الغالط، فقرأ في الإدراج بترك الحركة. وللمفسرين في المراد ب { مَكْرَ } قولان.

أحدهما: أنه الشرك، قال ابن عباس: عاقبة الشرك لا تحل إلا بمن أشرك. والثاني: أنه المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم، حكاه الماوردي. قوله تعالى: { فَهَلْ يَنْظُرُونَ } أي: ينتظرون { إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَىٰ } أي إلا أن ينزل العذاب بهم كما نزل بالأمم المكذبة قبلهم { فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ }

في العذاب {تَبْدِيلًا} وإن تأخر {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَخْوِيلًا} أي لا يقدر احد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم.

{أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَكَارُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُعْزِمَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى
طَهْرَهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا }

قوله تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا} هذا عام، وبعضهم يقول: أراد بالناس المشركين. والمعنى: لو واخذهم بأفعالهم لعجل لهم العقوبة. وقد شرحنا هذه الآية في [النحل: 61] وما أخللنا به فقد سبق بيانه [يوسف: 109، الروم: 9، الأعراف: 34، النحل: 61].
قوله تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} قال ابن جرير: بصيرا بمن يستحق العقوبة ومن يستوجب الكرامة.